الفَصْلُ الخَامِسُ

العلاج النفساني في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر

أ) في أُوربّة

لم تنشط حركة العلاج النفساني بِطُرق علمية في أُوربا إلا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، حيث ظهر في فينا شخصية كبيرة كان لظهورها أَثر بارز في عالم الطب النفساني، ذلكم هو الدكتور فرانز أَنطون مِسْمَر[١]، الذي سميت باسمه «النظرية المسمرية Mesmerism» وتُسمى أَحيانًا نظرية «المغناطيسية الحيوانية Animal Mgnatism».

ولا يتسع المقام لشرح هذه النظرية بالتفصيل، فيكفي أَن أَقول إن هذا الرجل كان يعتقد – كما اعتقد البابليون من قبل – أَن الأَجرام العلوية والكواكب تُؤثر في الإِنسان وغيره من الكائنات السفلية، بقوة مغناطيسية تنبعث منها موجات مُتلاحقة، ما تزال سائرة في طريقها حتى تصل إِلى الأَجسام الأرضية، ومنها الإِنسان، فتحتل جسمه، وتُؤثر في حياته الجسمية والعقلية.

ثم إن مِسْمر يُقرر أَنه إِذا كان من الممكن حبس هذه القوة المغناطيسية في المريض، ومنعها من التشعع، أَو إِذا أَمكن توجيه موجات مغناطيسية قوية مُصطنعة إِلى جسمه، فإِنه قد يبرأ مما عسى أَن يصيبه من

---

(٧٧) Franz Anton Mesmer.

مرض.

وبهذه الطريقة عالج مِسْمر بعض المرضى، وكان منهم فروالين أوسترلاين Osterline، التي شفاها من مرض عصبي حاد كان يصحبه قيء، وإغماء، وخبل، وضيق في التنفس، وألَم في الأُذن، وشلل.

وكان مِسْمر يستخدم في علاجه قضبانًا من الحديد الممغْطس يلمس بها جوانب المريض، ثم استخدم بعد ذلك أَنامله للغرض نفسه.

وقد وصلت أَخبار مِسْمر إِلى لويس الخامس عشر، فاستدعاه إِلى باريس حيث حظى بشهرة عظيمة، وتعلقت به الجماهير، وفتنوا به، وآمنوا بطريقته، ولم ينكر عليه أَمره إِلا العلماء الذين تشبعوا بروح المادية، ولم يقيموا النظرية مِسْمر وزنًا، وقد ظهر أمر مِسْمر رغم مُعارضة العُلماء والفلاسفة.

وفي سنة ١٨٤١م اتجه البحث اتجاهًا جديدًا على يد الدكتور بريد Braid الإِنجليزي، أَحد أَطباء منسشتر، الذي وصل – بعد مباحث مُتعددة، ودراسة عميقة دقيقة لطريقتي مسمر وفاريا، إِلى أَنه ليس من الضروري أَن يستعمل الطبيب المغناطيس، بل يكفي أَن يُنوّم المريض بِأَي وسيلة من الوسائل. وقد وجد أَن حصر انتباه المريض بالنظر إِلى جسم مُضيء مثلًا مُدة طويلة يوصل إِلى هذه النتيجة، وقد سمى بريد هذه العملية Hypnosis؛ أَي التنويم، وهي مُشتقة من كلمة يونانية هي Hypnos؛ أَي النوم.

وقد عالج بريد بهذه الطريقة كثيرًا من الأَمراض الجثمانية وغيرها

كالرَّثية، والشلل، والصرع، والتهاب العمود الفقري، والصمم، وقصر النظر، وبعض أَمراض القلب. وقد قرر بعد طول تجارب أَن التنويم ليس إِلا نوعًا من أَنواع الإِيحاء، وبذلك يكون قد أَثبت تأثير الإِيحاء بعد التنويم في مُعالجة الأَمراض العقلية والجثمانية.

وقد بلغت صناعة التنويم المغناطيسي في أَوج عظمتها على يد الدكتور شاركوت Charcot، الطبيب الفرنسي، الذي عارض بريد، وقرر أَن التنويم في الواقع تأثير مُباشر في الأَعصاب، وأَن النوم حينئذ حالة من حالات الصرع، فهو حالة مادية ليس للناحية العقلية فيها شأن يُذكر.

وظهرت بعد ذلك مدرسة نانسي بفرنسا، وعلى رأسها ليوبولت وبيرنهايم Liebeaulte and Bernhiem فأقرت بعد البحث رأي بريد. ومن ذلك الحين كانت طريقة العلاج بالتنويم طريقة علمية مبنية على أَساس نفسي هو: التأثير بالإِيحاء أَو الاستهواء. ويعزى إِلى بيرنهايم أَنه أَول من لفت الأَنظار إِلى قوة الإِيحاء الذاتي قياسًا على قوة الإِيحاء الخارجي، وأَنه صرح بِأَن من الممكن علاج جميع أَمراض الإِنسان بالإِيحاء الذاتي أَو الخارجي.

جاء بعد ذلك دي بوا DeBios السويسري، فجعل العلاج النفساني بالإِيحاء والتضريب أَو التحريض صناعة يعتد بها، ونصح للأَطباء أَن يدرسوا علم النفس، وأَن يُطبقوا ما يُمكن تطبيقه من مبادئه في أَثناء علاج المرضى.

وظهر في فرنسا في عصرنا الحالي مسيو إِميل كوي Emile coué،

الذي بذل جُهودًا جبارة في إذاعة مذهبه، ويتلخص في قوة تأثير الإيحاء الذاتي أَو الخارجي في السلوك، وقد عالج بنفسه كثيرًا من المرضى بالشلل، والرئية، وضيق التنفس. وسُتتاح لي فرصة أُخرى للكلام على هذه الطريقة.

ب) في أَمريكا

علاج العُلماء المسيحيين

نترك أُوربة مُؤقتًا ونذهب إِلى أَمريكا، فنجد حركة علاجية نشيطة هي حركة: «العلم المسيحي Christian Science» التي يُسمى زعماؤها «العلماء المسيحيين Christian Scientists».

ويرجع الفضل في نشأة هذه الحركة ونموها إِلى السيدة إِدي Eddy، التي يمدنا تاريخ حياتها بمادة قيمة تفيد المعنيِّين بعلم النفس والعلاج النفساني. وقد كانت إِصابتها بمرض عصبي مبدأ لتدوين تلك الصفحات المجيدة التي سطرتها في تاريخ الديانة المسيحية، وتاريخ العلاج النفساني معًا.

كان مولد هذه الشخصية البارزة، التي قدر لها أَن تكون زعيمة فرقة دينية مسيحية ذات شأَن، في سنة ١٨٢١ – أَي مُنذ قرن وربع قرن – في مزرعة وضيعة من مزرعات (نيوهامبشير[١]) بِأَمريكا، بلد العجائب والمفاجآت. وكانت مُنذ فجر حياتها فريسة لمرض عصبي وبيل، فكثيرًا ما كان يعتريها صرع عنيف، يعقبه ارتخاء في الأَعصاب، أَو حالة غيبوبة تشبه حالة النوم. ولما ناهزت الخامسة والثلاثين من عمرها زلقت رجلها على

---

(٧٨) New Hampshire.

الجليد في فصل الشتاء، فسقطت على الأَرض مغشيًا عليها، فأُصيبت برضوض في ساقها، وانتهت إِصابتها إِلى مرض يُسمى: «بارايليجيا Paraplegia»، وهو شلل موضعي في العمود الفقري، وقد حاول الأَطباء أَن يُعالجوها فلم يفلحوا، وبقيت طريحة فراشها عِدة سنوات في حالة مرض ويأس.

ولما بلغت الأَربعين حدث حادث غيَّر مجرى حياتها، وفي الوقت نفسه غيرَّ كيانها العقلي تغييرًا تامًا؛ ذلك هو أَن: الطبيب كويمبي Quimby أَفلح في علاجها علاجًا نفسيًا سريعًا هينًا ذهب بمرضها، وكان هذا العلاج مبدأ تلك الحركة العلاجية الدينية التي حمل لواءها رجال العلم المسيحي.

ومن غريب ما يروى عن (كويمبي) أَنه كان في أَول أَمره صانع ساعات، عُرِف بِحدَّة الذكاء، وقوة الملاحظة، واشترك في جلسات تنويم مغناطيسي كان يتزعمها مُنوَّم فرنسي في مدينة (بورت لاند[١]). ثم أَخذ (كويمبي) نفسه يُمارس التنويم المغناطيسي، غير أَنه لاحظ في أَثناء تلك الجلسات، وعند مُمارسته التنويم، أَن النصائح التي كان يلقيها المنوّم على النائم المريض كانت مقصورة على غرس فكرة الشفاء في نفس المريض، وأَن هذه الفكرة وحدها كفيلة بسير المريض نحو الشفاء، أَما ما كان يتناول من أَدوية فعديم القيمة.

كانت هذه الملاحظة سببًا في أَن يُغيِّر (كويمبي) طريقته في المعالجة، وأَن يعنى أَولًا وقبل كل شيء بِأَن يبث في روح المريض الثقة بالنفس، كي

---

٧٩) Portland.

يقتلع من ذهنه آثار الخوف من المرض، وعند ذلك نبتت فكرة «العلاج النفساني»؛ أَي العلاج بالإِيحاء المجرد بدون أَدوية.

وقد أَحدثت هذه الفكرة في نفس السيدة (إِيدي) أَعمق الآثار، فتحمست لها، وقررت أَن تعمل مع الدكتور كويمبي، وتظل أَمينة سر له. ثم عكفت على دراسة بعض مسودات مشوَّهة، كان كويمبي قد دوَّنها في موضوعي الدين والعلاج النفساني.

وبعد موت ذلك الزعيم فجأة، استولت على مُذكراته، وشرعت في تبييضها، والتعليق عليها، وأَذاعت في الناس في كل مكان أَنها تحمل رسالة عظيمة تعزم أَن تُؤديها للعالم.

ولما لم تُصادف نجاحًا في مُمارسة العلاج النفساني الذي رفعت من شأنه رأت أَن تكتفي بشرح نظريات كويمبي، وتترك تطبيقها عمليًا لغيرها. وبعد تحمل كثير من أَلوان الشقاء والمحنة نجحت في تأسيس مدرسة طبية في بلدتي لين Lyn وماس Mass، ثم في بوسطن Boston. وكانت تتقاضى أُجورًا باهظة على مهنتها التي قصدت منها إِلى جعل تلاميذها ذوي قدرات مُمتازة على العلاج، وادعت لنفسها الحق في السيطرة على أَربحاهم مدى الحياة. وقد جنت أموالًا كثيرة من مدرسة بوسطن، ومن علاج المرضى، ومن ريع الكُتب والمجلات التي كان تلاميذها يشرفون على إِصدارها. وكان من أَمرها أَناه كانت «تُعالج الغائبين» بطريقة ساذجة هي: التفكير في شفائهم من أَمراضهم.

وقد تمكنت مُؤسِّسة مذهب «العلم المسيحي» من التغلب على ما

قام في طريقها من صعاب جمة، بفضل ما أُوتيت من نشاط، وثقة بالنفس، وإيمان ثابت لا يتزعزع. وانتهى بها الأَمر إِلى أَن قامت بحركة جديدة هي المسماة «بحركة الفكر الحديث The new thought movement». وشرحت السيدة (إيدي) مذهبها – الذي نال ذلك الحظ الوافر من الانتشار – في كتابها المسمى: «العلم والصحة Science and Health» الذي طُبِعَ سنة ١٨٧٥، ثم أُعيد طبعه أَكثر من مائتي مرة. وتقول السيدة إِيدي أَن كتابها هذا الذي أَلَّفته في العلم الحديث هو الحق المطلق، وإِنه هو روح الفلسفة الربانية التي لا فلسفة غيرها، وزعمت أَنه «حينما يتكلَّم الرب فإِنها تستمع لقوله»؛ تريد بذلك أَنها مُلهمة فيما تقول.

ويقول جانيه في نقد هذا الكتاب: إِنه كتاب يصعب على الإِنسان أَن يقرأه ويفهمه؛ لأَن أُسلوبه غريب غامض، لا يتضمن إِلا بعض مبادئ فلسفية عادية ساذجة، شُرِحَتْ مِرارًا وتِكرارًا، بعبارات مليئة بالاستعارات والمجازات.

وقد خصص الجزء الأَكبر من الكتاب لشرح فلسفة جريئة من النوع الروحاني، تتلخص في ثلاث مبادئ هي:

(١) الله هو الكل في الكل، وهو خير بطبيعته.

(٢) الخير الأَسمى في هذا العالم هو العقل.

(٣) متى ثبت أَن الله والروح هما الكل في الكل ثبت أَن المادة هي لا شيء، أَي هي العدم.

هذا وإِن الناحية السلبية من فلسفة «إِيدي» أَهم وأَبعد مدى من

الناحية الإيجابية؛ يظهر ذلك من مقتها الشديد لفكرة المادة، التي لا تنفك تُقرر أَنها عدم محض فلا وجود لها؛ ولذا لا تُحاول أَن تشرحها، بل تعمل على طمس معالمها، وإخراجها من دائرة الفكر.

وهُناك أَشياء كثيرة أُخرى مثلها مثل المادة في العدمية؛ فالإثم والفقر والمرض تثير كلها ضجر هذه المصلحة الدينية؛ ولذا لا تحاول التعرض لها بشرح أَو تعليل، بل تعمل على إبعادها من دائرة الشعور، ولا تكتفي هذه السيدة بإنكار وجود هذه الأَشياء، بل تحاول أَن تُبيّن السر في اعتقاد الناس بوجودها، فتعزو ذلك إلى الخطأَ في الإدراك، أَو إلى سلوك العقل الإنساني مسلكًا معوجًّا شاذًا.

يقول بعض الناس إن الورم مثلًا مُؤلم، ولكن هذا خطأ سخيف لا مسوغ له؛ لأَن المادة بدون العقل ليست مؤلمة، فالواقع أَن التورم بما يصحبه من التهاب وتضخم في الجسم ينشأ عنه اعتقاد بوجود الأَلم؛ فلو ذهب هذا الاعتقاد من النفس لذهب معه الأَلم، وبريء منه الإنسان؛ فليست المادة هي التي تُصاب بالأَلم، وإنما الذي يُصاب بالأَلم هو العقل المريض.

ولا يدل الاعتقاد العالمي العام في الموت على شيء حقيقي، فسنعلم في نهاية الأَمر أَن الموت ليس إلا حلمًا خالدًا يأتي في عالم الظلمات، ويختفي في عالم النور.

والنتيجة الحتمية لهذا المذهب أَن علاج المرض سهل هيّن، فليس هُناك داعٍ إلى تشخيص المرض؛ لأَن طريقة العلاج واحدة – مهما يكن

نوع المرض أَو سببه – وليست هُناك حاجة إِلى تشريح الجسم، أَو تناول أَدوية مادية، فهذه عديمة القيمة، ولا يستطيع العقل السليم إِدراك فائدتها. وليس هُناك داع إِلى اتخاذ الاحتياطات الصحية، وللمريض أَن يأكل ما يشاء، ويشرب ما يريد – ولو كان مُصابًا بسوء الهضم – فإِن الله لم يجعل للإِنسان سلطانًا على لحم البحر فقط، بل جعل له سلطانًا على لحم معدته أَيضًا.

ولكي نبث في روح المريض والطبيب معًا الثقة بالنفس، يجب أَن نعمل على أَن نجتث من أَعماق نفسيهما جذور الاعتقاد بوجود المرض، إِن الأَطباء ينكرون على الناس الانغماس في خيالاتهم وأَوهامهم، ونحن نُربي الأَطفال على عدم الاعتقاد بالعفاريت والجان، فلماذا نقول بوجود الأَمراض التي وجودها أدخل في باب الوهم والخيال؟

لذلك كله يجب أَن نقضي على هذه العلاجات الطبية المادية العديمة الفائدة، التي لا تستند إِلى تفكير سليم، وأَن نقضي على تلك الخرافات والمخاوف والأَوهام، وأَن نغرس في نفوس الناس بدلًا منها عقائد صحية إِيجابية، أَساسها أَن العقل هو المسيطر على الجسم، وأَن له عليه السلطان المطلق التام، وأَن نعلم حق العلم أَن هذه العقيدة هي الأَداة الفعالة التي لها أَعظم الآثار في العلاج.

هذه هي المبادئ التي أَذاعها هؤلاء العلماء، وأَقاموا على أَساسها مذهبًا دينيًا، رفيع البناء، ثابت الأَركان، وأَدخلوا بها السرور على ملايين من الناس.

وعلى الرغم من هذا كله لم يسلم هذا المذهب من النقد المر، والتجريح الصريح. يقول الدكتور جانيه: «مما لا شك فيه أَن «الأَطباء العُلماء» لم يكونوا يفهمون حق الفهم معنى كلمة من الكلام الذي كانوا يتشدقون به؛ مثلهم في ذلك مثل هؤلاء المرضى المساكين الذين تولوا علاجهم».

وخُلاصة القول:

(١) أَن مذهب العلم المسيحي ليس مذهبًا فلسفيًا بمعنى الكلمة، ولكنه طريقة علاجية.

(٢) أَن التفكير في علاج المرضى وشفائهم كان أَهم ما عُنيت به السيدة «إِيدي» صاحبة هذا المذهب.

(٣) أَنها قد اهتدت آخر الأَمر إِلى اليقين بِأَن عقيدة المريض تُؤثر في سير مرضه.

(٤) أَنها حاولت فيما بعد أَن تقيم عقيدتها هذه على الدليل المنطقي الفلسفي لتثبت دعائمه، وتقوي روحها، وتقوي في غيرها من أَتباعها روح الثقة بالنفس، وعدم الاعتداء بالشر، ولكنها سلكت مسلكًا وعرًا مليئًا بالأَخطار، لم تنج منه إِلا بعد أَن تعثرت عِدة مرات، وبذلت جهودًا جبارة في مُقاومة ما صادفها من صعوبات مُتنوعة.

(٥) أَن مردَّ هذه الفكرة إِلى تجارب كويمي الذي عالج السيدة «إِيدي»، وشرح لها مذهبه، وترك لها مُذكراته التي ورد فيها «إِني أَتمسك بِإِنكار المرض وإِخراجه من عالم الحقيقة، وأَقر أَن القول بوجوده

خطأ محض، مثله في ذلك مثل الأَساطير الخرافية التي يتناقلها الناس من جيل إلى جيل، حتى تصبح جُزءًا لا يتجزأ من عقائدهم الحيوية».

(٦) أَن كويمبي يبني إنكاره لوجود المرض على أَن للعقل السلطان المطلق على كل صورة من صور المادة، التي ليس لها في نظره إلا وجود وهمي وضيع المنزلة.

(٧) أَن كويمبي أَنشأ مذهبًا فلسفيًا روحانيًا **Idealistic** مُبهمًا هو أَشبه ما يكون بالنظام الفلسفي الذي وضعته تلميذته.

ونضيف إلى ذلك كله أَن كويمبي أَخذ بعض مبادئه ومعارفه عن المنوم الفرنسي بوين **Poyen** الذي نقل مذهب دلور إلى أَمريكا.

وأَن مذهب العلم المسيحي قد تأثر إلى حد ما بمذهب المغناطيسية الحيوانية فيما ذكر «العُلماء» عن العقل الباطن، وعن علاقة الطبيب بالمريض، وعن أَثر قوة الإرادة في العلاج، وعن نقل الأَفكار من الطبيب إلى المريض، وفيما انطوى عليه هذا المذهب من آراء خاصة بتشخيص المرض «مِن بُعْدٍ» وعلاج الغائب.

أَما ما يُلاحظ من حملة هؤلاء العُلماء على المغناطيسيين فلا قيمة له، ولا يقدح في وجود علاقة وثيقة بين المذهبين، فضلًا عن أَنه نزاع عائلي داخلي؛ فمن المحقق – كما يقول جانيه – أَن مذهب العلم المسيحي في أَمريكا وليد مذهب المغناطيسية والتنويم المغناطيسي؛ يدلنا على ذلك تاريخ حياة كويمبي العلاجية التي ذكرناها فيما مضى.

ج) العلاج الجثماني أَو الطبيعي

في الوقت الذي يُنادي فيه العُلماء المسيحيون بتجنب تناول الأَدوية المادية، وبعلاج المرضى بوسائل نفسية أَو روحانية بحتة، نجد فريقًا من الأَطباء يذهبون إِلى الطرف الآخر، فيُعالجون الأَمراض العقلية والشذوذ الخلقي بمواد كيميائية أَو عقاقير طبية يصفونها للمريض؛ مُعتقدين أَنها تُؤثر في الجسم أَولًا، وتشفيه من علله وأَمراضه، ثم يتعدى تأثيرها إِلى العقل فيزول ما به من أَمراض، وإِنهم ليستندون في عقيدتهم هذه إِلى أَدلة منطقية لها ما يُبررها. يقول هؤلاء إِن الاضطرابات العقلية على اختلاف أَنواعها، ما هي إِلا اضطرابات في سلوك الإِنسان، وما سلوك الإِنسان إِلا مجموعة العمليات التي تصدر منه أَو فيه، وبعض هذه العمليات تقوم بها الأَطراف أَو الفم أَو اللسان، وبعضها تقوم به الأَجهزة الباطنية، فكيف يُمكن أَن نعترف بِأَن العمليات الخارجية، التي تصدر عن المصاب بمرض عقلي نتيجة لحركة أَطرافه أَو لسانه أَو شفتيه – مُستقلًا استقلالًا تامًا عن العمليات الباطنية التي تحدث في الجسم نفسه – ذلك الجسم الذي يبحث في وظائفه علم وظائف الأَعضاء؟

ثم أَليس النجاح في مُلاءمة العمليات الخارجية للبيئة الخارجية، ضروريًا للحصول على السعادة في الحياة؟ وأَليس هذا النجاح مُتوقفًا على وجود تلاؤم وانسجام بين العمليات الخارجية أَو السلوك الخارجي، وبين العمليات الباطنية التي تقوم بها الأَجهزة الداخلية؟ وأَليست الصحة العقلية متوقفة على هذين الأَمرين؛ أَي على مُلاءمة العمليات الخارجية للبيئة الخارجية، وعلى انسجام الأَعمال الخارجية مع الأَعمال الباطنية؟

فالخلل في السلوك الخارجي معناه في النهاية خلل في الأَجهزة الباطنية، فإذا رأَينا شذوذًا في السلوك علمنا أَن ذلك يرجع إلى نقص أَو خطأً في الحياة الجسمية. ولا بُد من أَن نعد المجنون مثلًا مُصابًا بمرض جثماني مهما يكن مظهره، ومنظره الصحي. وإذا رأَينا من يُصاب بمرض عقلي مُنذ عهد البلوغ أَو المراهقة، ويحتفظ بمظهره الصحي إلى عهد الشيخوخة، فلا بُد أَن نجزم بِأَن هذه مُشكلة غامضة يعجزنا عن حلها جهلنا بمدى حياة الإِنسان العادية، وبالأَسباب التي تقصر العمر العادي، وتُقلل من النشاط الحيوي. فمن يدري أَن هذا الذي تظهر عليه علامة الصحة الجسمية – مع مرضه العقلي – غير مُصاب بمرض جسمي مجهول، بحيث لو برئ منه لكان منظره الخارجي أَبهى وأَجمل، ولعاش مُدة أَطول، ولاستمتع بنشاط حيوي أَعظم وأَغزرا؟ ومن يدري؟ فلعلنا نخدع أَنفسنا حينما ننظر إِلى ما يستمتع به المجانين أَو مرضى العقول من صحة جيدة نظرة إِعجاب!

هذه خلاصة مذهب السلوكيين في علاج الأَمراض العقلية. ومن الحق أَن نقول إِنهم منطقيون، حين يبنون رأَيهم في هذا العلاج على مذهبهم السلوكي؛ فهم لا يعترفون بوجود أَمراض عقلية بالمعنى الذي نفهمه، وإِنما يعترفون بوجود خلل أَو شذوذ في السلوك الذي يهتمون بدراسته، ولا يأبهون بدراسة عقل أَو شعور.

فما نُسميه نحن مرضًا عقليًا يُسمونه شذوذًا في السلوك، ويقولون إِنه راجع إِلى خلل أَو اضطراب في الحالة الجسمية الباطنية، فإِذا عولجت هذه الحالة الجثمانية الباطنية علاجًا ناجحًا صح الجسم، وذهب الشذوذ.

على أَننا يُمكن أَن نُبرر هذا المذهب المادي من جهة أُخرى فنقول:

من الثابت الذي لا جدال فيه أَن الجسم والعقل مُتصلان تمام الاتصال، يُؤثر كل منهما في الآخر بالصحة أَو المرض. ومن الثابت أَيضًا أَن العُلماء المسيحيين ومن إِليهم قد نجحوا إِلى حد ما في علاج أَمراض الجسم بوساطة العقل؛ أَي أن وسيلتهم في العلاج هي التأَثير في الجسم بوساطة العقل، وإِذا ثبت هذا وذاك فلم لا يُمكن العكس وهو أَن نُعالج الأَمراض العقلية بوساطة الجسم؟

الحق أَن هذا دليل مقبول تُؤيده التجارب الحديثة، وتُؤيده تجربة ابن سينا في شفاء المصاب بالملانخوليا التي سبق شرحها، بل يُؤيده ما قيل مُنذ القدم مِنْ أَن العقل السليم في الجسم السليم.

فمن المرجح (على الأَقل) أَن جميع الأَمراض الجثمانية – مهما يكن نوعها – لا بُد أَن يكون لها أَثر في الحياة العقلية التي لا تكون كاملة إِلا حين يُؤدي الجسم وظائفه الحيوية على الوجه الأَكمل.

وكثيرًا ما يُطبق الأَطباء هذا المبدأ، فيبحثون في جسم المصاب بمرض عقلي، لعلهم يجدون فيه خللًا أَو عطبًا أَدى إِلى ما يظهر من شذوذ السلوك أَو التفكير.

وقد وجدوا بالبحث أَن كثيرًا من مرضى العقول يشكون من اضطراب الهضم وسوء عملية التغذية، وأَن فريقًا آخر لا يتناولون طعامًا كافيًا، وأَن فريقًا ثالثًا يميلون إِلى البطنة؛ فمن الضروري في مُعالجة هؤلاء أَن يُوضع لهم نظام خاص للطعام والشراب.

وقد اختبرت حال الدورة الدموية فَوُجِدَ أَن الإِصابة بمرض عقلي يصحبها ازدياد في النبض، وتغير في ضغط الدم، وارتفاع أَو انخفاض في درجة الحرارة في بعض أَجزاء الجسم؛ يدل عليه احمرار بعض الأَجزاء أَو اصفرارها. فإِذا نظمت الدورة الدموية، ونظم توزيع الدم على جميع أَجزاء الجسم، ساعد ذلك على التخفيف من حِدة المرض العقلي.

ومما لا يكاد يشك فيه الآن تأثير إِفرازات الغدد الصماء في الحالات النفسية، فقد وُجِدَ أَن تغير هذه الإِفرازات أَو إِحداث اضطراب فيها بالزيادة أَو النقص يصحبه تغير ظاهر في الحياة العقلية، وبالعكس؛ فقد وُجِدَ أَن الإِصابات العقلية يصحبها تغيرات في هذه الإِفرازات تشبه ما يحدث لها حينما تكون هذه الغدد في حالة عطب أَو اضطراب، والنتيجة الحتمية لذلك أَنه من الممكن أَن يُساعد تعديل الإِفرازات الغدية على شفاء مرضى العقول.

ويكاد يكون من المجمع عليه بين الأَطباء أَن تخدير الأَعضاء الخارجية أَو الباطنية أَو تسممهما يُؤدي إِلى اضطراب الحياة العقلية. ويميل فريق منهم إِلى القول بِأَن كثيرًا من الأَمراض العصبية يرجع إِلى تسمم باطني ذاتي ينشأَ عن اضطرابات في المعدة أَو الأَمعاء، وأَن من وسائل علاج المريض القضاء على هذا التسمم بِأَي وسيلة طبية. كل هذه الأَبحاث الفسيولوجية تُؤيد ما ذكرناه آنفا، وسنذكره فيما يأتي من توثق الصلة بين الجسم والعقل.